

الفصل الثالث

تلاميذ الزهري

مُوسَى بن عُقْبَةَ

ونعرف من تلاميذ الزهري ثلاثة ألفوا في المغازي ، وهم : موسى بن عقبة ، ومعمّر بن راشد ، ومحمد بن إسحاق ، والثلاثة جميعهم ليسوا من طبقة الأشراف المسلمين وإنما هم من الموالي .

فكان موسى بن عقبة بن أبي عياش مولى بني الزبير بن العوام ، أوبالدة مولى زوج الزبير أم خالد^(١) . وكان جده لأمه مولى لابن الزبير^(٢) وقد ارتبطت أسرتهما ارتباطاً وثيقاً ، ولا يعرف تاريخ مولده بالضبط ؛ وقد أجاب موسى عنده ما سئل : هل رأى أحداً من الصحابة^(٣) ؟ فقال : « حججت وابن عمر بمكة ، عام حج نجدة الحروري (أحد قواد الخوارج) » . وحفظ لنا الطبري^(٤) خبراً عن وجود نجدة وأتباعه في مكة ، قال : « وقت في سنة ٦٨ (أي في خلافة عبد الله بن الزبير) أربعة ألوية : ابن الحنفية في أصحابه في لواء ... ، وابن الزبير في لواء ... ، ونجدة الحروري خلفهما ، ولواء بني أمية عن يسارهما » . ثم يضيف الطبري : « كأن ابن عمر لم يدفع تلك العشية إلا بدفعة ابن الزبير » . وإذن لا يمكن الشك في أن حج موسى بن عقبة كان في عام ٦٨ هـ ؛ وإذن فهو لا يمكن أن يولد بعد عام ٨٥٥

(١) ابن حجر : تهذيب ١٠ : ٣٦٠ ؛ الذهبي (ت . فبشر) ١ : ٤٣٧ .

(٢) ابن سعد ٥ : ٢٢١ . (٣) ابن حجر ٣٦٢ . (٤) ٢ : ٧٨٢

بكثير . ويقول الواقدي^(١) . « كان لإبراهيم وموسى ومحمد بنى عقبة حلقة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانوا كلهم فقهاء ومحدثين ، وكان موسى يفتى » . ولا نجد شيئا آخر عن نشاطه في الحياة العامة ، ويبدو أنه لم يتصل ببلاط الأمويين . وتوفي بعد سقوط تلك الأسرة بعشرة أعوام تقريبا ، أى في عام ١٤١ هـ^(٢) .

وبعد موسى من المتبحرين المتخصصين في المغازى ، ويقول مالك بن أنس^(٣) : « عليكم بمغازى موسى بن عقبة فإنه ثقة... وفي رواية : فإنه رجل ثقة ، طلبها على كبر السن ولم يكثر كما كثر غيره » . وربما نستنبط من هذا القول أن كتاب عقبة كان أصغر حجما من السكتب الأخرى التى عاجلت نفس الموضوع ، ومن المحتمل أن مالك بن أنس يهاجم بقوله هذا ابن إسحاق الذى كان يعيب « مغازيه » فى كثير من الأحيان ، كما نعرف . وقد حدث بمغازى عقبة ابن أخيه إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة^(٤) الذى توفي عام ١٥٨ هـ ، واستخدمها ياقوت^(٥) فى اختصاره لأبى نعيم ولم يصل إلينا السكتاب ، أو بالدقة ، لا يعرف شىء عن وجوده . وقد أكد بعضهم لألويس شبرنر Aloys Sprenger فى دمشق أنه توجد نسخة هناك ، ولكنه لم يستطع أن يراها . ويبدو أن الديار بكري ، مؤلف « تاريخ

(١) ابن حجر ٣٦٢ ؛ الذهبى ٤٣٨ .

(٢) ابن حجر : نفس الموضع ؛ الذهبى : نفس الموضع ؛ البخارى : تاريخ ١٦٦ .

(٣) ابن حجر ٣٦١ .

(٤) ابن سعد ٥ : ٣١٠ ؛ سخاو : القطعة البرلينية من موسى بن عقبة

(وصف أعمال الأكاديمية البروسية للعلوم عام ١٩٠٤) ٤٤٩ .

(٥) ت . وستيفيلد ٤ : ١٠٠٨ ، انظر أيضا ٣ : ٨٧٢ .

الخمس» الذي تم عام ٩٤٠ ، استفاد من هذا الكتاب^(١) . ومع ذلك لازلنا نمتلك قطعة واحدة منه تحتوي على حديث أو أكثر من كل جزء من أجزاء الكتاب العشرة ؛ وهي في المكتبة البروسية الرسمية ، ونشرها إدورد سخاو بنصها العربي مع ترجمة ألمانية في عام ١٩٠٤ . ويتضح من هذه القطعة ، كما كان يتوقع ، أن كتاب موسى لم يقتصر على المغازي بالمعنى الخاص ، وإنما شمل الهجرة على الأقل ؛ وأن الزهري كان أكثر من روى عنه موسى ، كما يمكن استنتاجه من حكم ابن معين^(٢) : « كتاب موسى ابن عقبة عن الزهري من أصح هذه الكتب » . ويجب ألا نصدق الادعاء الذي لا نعرف راوياله^(٣) ويقول بأن موسى لم يسمع أى حديث عن الزهري ، أو لا قبله على أية حال إلا على أن موسى لم يأخذ أخباره عن الزهري مباشرة ، وإنما عن طريق أحد تلاميذه ، أو عن مدونات . وغالبا ما يقول موسى ، في قطعة برلين ، في المواضع التي يذكر فيها الزهري : « قال ابن شهاب » أو « زعم ابن شهاب » وكلاهما يمكن أن يدل على مدونات الزهري ؛ ولكنه يقول مرة واحدة على الأقل في قطعة برلين هذه : « حدثني الزهري » . وإلى جانب قطعة برلين ، نجد عدة مقتبسات من كتاب موسى عند ابن سعد ، الذي استخدم الكتاب من رواية إسماعيل ابن أخى موسى أيضا^(٤) . ونستنتج من المقتبسات الكثيرة في المجلدين الثالث والرابع من

(١) تاريخ الخميس ٢ : ٦٠ ، انظر أيضا ١ : ٥٣٩ .

(٢) ابن حجر ٣٦١ . (٣) ابن حجر ٣٦٢ .

(٤) ابن سعد ٢ : ١ ، ٣ : ١ .

ابن سعد أن كتاب موسى كان يحتوى على قوائم المهاجرين إلى الحبشة ،
والمشركين في بيعتي العقبة ، وأهم من كل ذلك ، المحاربين في بدر ؛
قوائم مثل التي أعدها شرحبيل بن سعد^(١) (انظر الفصل الأول من هذه
المجموعة) . ويقال إن مالكا قال عن هذه القوائم^(٢) : « من كان في كتاب
موسى قد شهد بدرا فقد شهدها ، ومن لم يكن فيه فلم يشهد » .
واستعار الواقدي أستاذ ابن سعد أحاديث مختلفة من كتاب موسى ؛
وهو لا يذكره في « كتاب المغازي » إلا في النادر^(٣) ؛ ومن الحق أن ابن سعد
أخذ كثيرا من أخبار موسى عن طريق الواقدي^(٤) . وأخذ الطبري أيضا
عددا من أحاديث موسى في كتابه ؛ وكثير منها يشير إلى عهد الخلفاء الراشدين ،
بل عهد الأمويين أيضا^(٥) إلى جانب إشارته إلى عهد النبي . و يروى « كتاب
الأغاني »^(٦) ملاحظة عن زيد بن عمرو ، تبين أن موسى وجه عنايته إلى
تاريخ ما قبل الإسلام .

وأول رواته ومقدمهم — ونظام الإسناد قاعدة عنده ، ولا يحذف
الرواة في المقتبسات المحفوظة عنه إلا في القليل منها — جَدُّه لأمه ،
أبو حبيبة الذي يروى له حوادث متأخرة وقعت في عام ٩١ هـ^(٧) .

-
- (١) أثبتنا — في الكلام عن شرحبيل — أنه لم يكتب قوائم مثل التي ينسبها
إليه المؤلف — ح . (٢) ابن حجر ٣٦١ .
(٣) انظر ترجمة ولهوزن ٨٠ ، ٣٤٤ ، ٤٠٣ .
(٤) ٣ : ٢٤١ ؛ ٨ : ١٠ ، ١١ ، ١٧١ ، ١٩٠ ، ١٩١ . أدب هذه
الأخبار وغيرها عن الرواة المذكورين عند ابن سعد اعطف اهر الدكتور جوتشلك
Gottschalk الذي أعطانى إياها من فهرس مخطوطة ابن سعد .
(٥) ابن سعد ٥ : ٢٨٣ ؛ البلاذري ، ت . آلورد ٢٣٠ .
(٦) ٣ : ١٦ . (٧) الطبري ٢ : ١٢٣١ .

ولا يعرف يقينا من أسانيده قدر استعارته بعض الأخبار من مدونات الرواة المتقدمين إلا في النادر ، وهو يصرح في أحد المواضع ^(١) برجوعه إلى مدونة ابن عباس : « وضع عندنا كريب (مولى عبد الله بن عباس المتوفى عام ٩٨ هـ) حمل بعير أو عدل بعير من كتب ابن عباس ، قال : فكان على ابن عبد الله بن عباس إذا أراد الكتاب كتب إليه : ابعث إلى بصحيفة كذا وكذا ، قال : فينسخها ، فيبعث إليه بإحداها . وكان تحت يد موسى أيضا الوثائق الأصلية ، إلى جانب هذه الصحف ممن قبله ، فهو يذكر رسالة وجهها النبي ^(٢) إلى المنذر بن سآوى بالنص . ويحتوى كتاب موسى أيضا على حقائق مؤرخة تاريخا سنويا ^(٣) ، ويستشهد بالقصائد ^(٤) من وقت لآخر ، ولكن ذلك نادر .

معمر بن راشد

وكان معمر بن راشد ، المولود في البصرة حوالى عام ٩٦ هـ ^(٥) ، مولى بنى حُدَّان ^(٦) من قبيلة الأزد . وسمع في شبابه يحدث البصرة المشهور قتادة بن دعامة (المتوفى عام ١١٤ هـ ^(٧)) . ثم أخذ في التطواف طلبا للعلم ^(٨) . ويبدو أنه بدأ هذه الرحلات بعد وفاة الحسن البصرى

(١) ابن سعد ٥ : ٢١٦ . (٢) البلاذرى ٣ : ٢٠٠ . دى غويه . ٨ .

(٣) تاريخ الخيس ١ : ٥٣٩ . (٤) ابن سعد ٣ : ٢٤١ .

(٥) ابن حجر ٢٤٣ . (٦) نفس المرجع .

(٧) البخارى : تاريخ ١٧٨ ؛ ابن سعد ٧ : ٢٠٠ ؛ ٢ : ٥٦٩ .

(٨) ابن حجر ٢٤٣ .

(عام ١١٠ هـ) وقد اشترك في جنازته^(١). ثم ارتحل إلى اليمن^(٢)، التي لم يرحل إليها أحد قبله من المحدثين^(٣). وحاول الناس في صنعاء عاصمة اليمن أن يبقوه عندهم على الدوام، وأفلحوا في ذلك، لأنه تزوج هناك^(٤). وكان بعد ذلك يذهب من وقت لآخر إلى البصرة، كما فعل عند وفاة أمه^(٥)؛ ولكنه رجع ثانية إلى اليمن، وتوفي فيها عام ١٥٤ هـ، (أو قبل ذلك بقليل في روايات أخرى) في الثامنة والخمسين من عمره^(٦). وزعموا فيما بعد أنه اختفى، ولكن يصرح تلميذه عبد الرزاق أنه توفي وسط أسرته في صنعاء، وأن قاضي صنعاء تزوج أرملته^(٧).

ويوصف معمر بأنه ذو أخلاق حميدة^(٨)، وله شهرة عامة طيبة في ميدان الحديث؛ يقال إن ابن جريج قال عنه: «عليكم بهذا الرجل، فإنه لم يبق أحد من أهل زمانه أعلم منه^(٩)». ويذكر الفهرست أنه صنف «كتاب المغازي^(١٠)»، الذي لم يصل إلينا منه غير فقرات، أكثرها عند الواقدي وابن سعد، وبعضها عند البلاذري والطبري. ويرجع معظم أخباره إلى

-
- (١) نفس المرجع؛ النووى ٥٦٩.
 (٢) ابن حجر والنووى؛ نفس الموضع؛ ابن قتيبة؛ المعارف ٢٥٣؛ ابن سعد ٣٩٧: ٥.
 (٣) النووى؛ نفس المرجع. (٤) ابن حجر ٢٤٥؛ النووى؛ نفس المرجع.
 (٥) ابن سعد ٣٩٧: ٥.
 (٦) ابن حجر؛ نفس المرجع؛ الطبري ٣: ٢٥٢٢.
 (٧) ابن سعد ٣٩٧: ٥؛ ابن حجر ٢٤٥.
 (٨) ابن سعد ٣٩٧: ٥. (٩) ابن حجر؛ نفس المرجع.
 (١٠) فلوجل. ينسب هناك إلى الكوفة خطأ.

الزهرى ، ويصرح معمر بوضوح^(١) أنه وجه أسئلة إلى الزهرى . ومن الواضح أنه فى الأعوام التى وهب نفسه فيها لطلب العلم ، حضر مجالس الزهرى معتنيا بها ؛ ويذكر ابن معين^(٢) معمر وحده مع مالك ويونس على أنهم أثبت الرواة عن الزهرى . ولم يلتزم معمر أيضا المغازى بالمعنى الخاص ، بل وجه عنايته كذلك إلى تاريخ أهل الكتاب عن الرسل السابقين — وحفظ الطبرى خاصة قدرا كبيرا من هذا الجزء من كتابه — وكذلك تاريخ النبى قبل الهجرة^(٣) . أضف إلى ذلك أنه يدنا عند ابن سعد والطبرى ، بأخبار حوادث خاصة فى عهد عثمان ومعاوية .

ومعمر من الذين أكثر الرواية عنهم الواقدى ، وقد تلقى ابن سعد أخباره عن طريق عبد الرزاق بن همام . وتلميذ معمر اليمنى هذا ، المتوفى عام ٢١١ هـ جمع كتابا يسمى « كتاب المغازى » كما يذكر الفهرست^(٤) ، ومن المحتمل أنه لم يكن إلا نسخة جديدة من كتاب أستاذه . وكان عبد المنعم بن إدريس ، ابن أخى وهب بن منبه ، من تلاميذ معمر اليمنيين أيضا^(٥) .

محمد بن إسحاق

غطت شهرة محمد بن إسحاق ، الثالث فى حلقة تلاميذ الزهرى المصنفين فى المغازى ، على جميع من سبقه وعاصره بكتابه ؛ وهو أول كتاب وصل

(١) البلاذرى ، ت . دى غويه ٢٢ . (٢) النووى : ٥٦٩ .

(٣) ابن رسته ٦٣ (وعت المسكبة الجغرافية ، (الكتاب الثالث) أخبارا

عن تاريخ يثرب فى الجاهلية) .

(٥) ابن سعد ٧ : ٩٧ .

(٤) فلولجل ٢٢٨ .

إلينا كاملا ، لافي قطع ولا مقتطفات ، وإن كان به نقص كبير . وقد تناول
يوحنا فيك Johann Fück حياته وكتابات أخيرا في رسالته المسماة « محمد
ابن إسحاق » المنشورة في مدينة فرانكفورت على نهر المين -Frankfuhr-
amMain عام ١٩٢٥ ؛ وقد خلصت هذه الرسالة الممتازة في العرض التالي ،
وكلتها حيثما ظهر لي ذلك ضروريا .

وقد ظهر ابن إسحاق أيضا من أسرة من الموالي . وأُرسل جده يسار ،
الذي ربما كان عربيا مسيحيا ، عند الاستيلاء على عين التمر في العراق
عام ١٢ هـ ، مع الأسرى الآخرين إلى المدينة^(١) ، وصار رقيقا عند بني قيس
ابن مخزومة بن المطلب ، وأعتق بعد اعتناقه الإسلام . وكان ليسار أبناء
ثلاثة ، تزوج أحدهم ، المسمى إسحاق ، ابنة مولى يسمى صبيح^(٢) ، فأنجبت
له محمدا صاحب المغازي فيما بعد ، ويبدو أن محمد بن إسحاق ولد حوالي عام
٨٥ هـ يستنتج هذا كما أشار أوجُست فيشر August Fischer ؛ من أن جميع
الرواة الذين أخذ عنهم ابن إسحاق مباشرة توفوا بعد عام ١٠٠ هـ ، وأنه لم يذكر
بين رواة جماعة من أشهر المحدثين المذنبين الذين توفوا في العام التسعين من
الهجرة . وروى الواقدي خبرا يتفق مع هذا التاريخ ، قال^(٣) : « كان محمد
ابن إسحاق يجلس قريبا من النساء في مؤخر المسجد ، فيروى عنه أنه كان

(١) الطبري ١ : ٣١٢٢ ؛ البلاذري ، ت . دى غويه ٢٤٧ ؛ فيك ٢٧ ،

الملاحظة ٢ .

(٢) القسطلاني ٤ : ٣٢٨ .

(٣) ياقوت ، مرجليوث ٦ : ٤٠٠ ؛ الفهرست ٩٢ .

يسامر النساء فرُفع إلى هشام^(١)، وهو أمير المدينة . وكانت له شعرة حسنة ، فرقق رأسه ، وضربه أسواطاً ، ونهاه عن الجلوس هنالك . وقد استمرت ولاية إسماعيل من عام ١٠٦ إلى ١١٤ هـ ، وإذن كان ابن إسحاق في ذلك العهد فيما بين العشرين والثلاثين من عمره .

وكان أبوه قبله مشغولاً بجمع الأحاديث ، وغالباً ما يروى عنه ابنه في كتابه . فلا بد لذلك أن يكون محمد بن إسحاق اضطر إلى الاشتغال منذ حداثة برواية الحديث ، ووسع فيما بعد مداركه بزيارة أشهر العلماء ، من أمثال عاصم بن عمر ، وعبد الله بن أبي بكر ، والزهرى ، وقد رجع إلى الثلاثة جميعهم في كتابه . ونسكنه حاول أيضاً أن يحصل على الأخبار من كل مكان آخر ، ويذكر قراءة مئة راو من المدينة وحدها .

ووفد ابن إسحاق عام ١١٥ هـ على الإسكندرية^(٢) ، حيث سمع خاصة من يزيد بن أبي حبيب (المتوفى عام ١٢٨ هـ) الذى كان أول من غرس دراسة الحديث في مصر^(٣) ؛ ولم يرحل ابن إسحاق من مصر إلى العراق مباشرة كما يظن عامة الناس ، ولكنه زار بلدته المدينة في أول الأمر ، كما رجح « فيك » ؛ وربما كان في إحدى هذه الزيارات^(٤) حين أبرزه أستاذه

(١) يذكر ياقوت هشاماً ؛ ولسكنه لما كان والياً على المدينة من عام ٨٢ إلى ٨٦ هـ ، فإنه من انصب أن يكون هو الوالى المشار إليه ، ومن المؤكد أن الوالى المعنى هو ابنه إسماعيل ، أما الفهرست فلا يذكر اسم الوالى .

(٢) ابن هشام : المقدمة ، م .

(٣) جولد تسيهر : دراسات إسلامية ٢ : ٧٣ ؛ فيك ٣٠ ، الملاحظة ٢٧ .

(٤) البخارى : التاريخ ٢٢١ .

الزهرى للحاضرين فى عام ١٢٣ هـ^(١) . وقد قابل سفيان بن عيينة بن إسحاق فى المدينة فى عام ١٣٢ هـ أيضا^(٢) . وأخيرا صار مقامه فى بلدته غير ملائم له ، فقد مُنى فيها بعداوة رجلين ، عداوة هشام بن عروة وعداوة مالك بن أنس ، وقد عرف ابن إسحاق أحاديث أبى هشام عروة ، الذى أشبعنا الكلام عنه فى مقال سابق ، عن طريق الزهرى ، وأفاد من استخدامها فائدة كبيرة . ويظهر هشام نفسه ، الذى ندين له هو والزهرى ويزيد بقسط كبير من المادة التى جمعها والده ، من وقت لآخر فى رواية ابن إسحاق ، ولكن يبدو أنه وصف ابن إسحاق بأنه غير جدير بالثقة فى مواضع خاصة . يقول ابن قتيبة^(٣) فى هذا الصدد : « وكان [ابن إسحاق] يروى عن فاطمة بنت المنذر بن الزبير ، وهى امرأة هشام بن عروة . فبلغ ذلك هشاما فأنكره ، وقال : أهو كان يدخل على امرأتى ؟ » . ويشبه ذلك كثيرا ما يروى فى الفهرست^(٤) : « يروى (ابن إسحاق) عن فاطمة بنت المنذر ، زوجة هشام بن عروة ، فبلغ هشاما ذلك فأنكره ، وقال : متى دخل إليها ومتى سمع منها ؟ » . ولكن جواب هشام المروى فى معجم ياقوت^(٥) ألطف من ذلك بعض الشيء . يقول : « هو كان يدخل على امرأتى ؟ كأنه أنكر ذلك » . والحادثة فى ذاتها قليلة الأهمية ، فقد سمعنا عن أخذ جامعى الأحاديث عن النساء . ورأينا أنفا عبد الله بن أبى بكر ، الذى كان من

(١) ابن خلكان ١ : ٦١٢ .

(٢) البخارى : التاريخ ١٥٥ .

(٣) كتاب المعارف ، نسخة وستنيلد ٢٤٧ .

(٤) ت . فلوجل ٩٢ . (٥) ت . مرجليوث ٦ : ٣٩٩ .

أشرف المدينة مثل عروة ، لا يعترض أى اعتراض على رواية زوجه عمرة الأحاديث لتلميذه . ولم يكن هذا التلميذ سوى ابن إسحاق . ومن المحتمل أن هشاما أيضا لم يعترض أى اعتراض على زوجه ، التى كانت أكبر كثيرا من زوجها وأكبر من ابن إسحاق بما يقرب من ٣٠ أو ٤٠ عاما^(١) لروايتها الأحاديث له ؛ بل لم يكن هشام عارفا بأية زيارة من ابن إسحاق لبيته أخذ فيها الأحاديث عن فاطمة ، ولذلك شك فى صحة أقوال ابن إسحاق .

أما خصومة مالك بن أنس مؤلف « الموطأ » المشهور ، فلها أسباب أخرى . فقد قيل عدة مرات إن ابن إسحاق كان يتمسك بمذهب القدر^(٢) ويقرر أبو زرعة أن دُحَيَّا المتوفى عام ٢٤٥ هـ ، صرح له بأن سبب خصومة مالك لابن إسحاق آراؤه فى القدر^(٣) . ويقال إن ابن إسحاق صرح بعدم رضاه عن علم مالك ، ويخبرنا تلميذ ابن إسحاق ، عبد الله بن إدريس بعبارة ابن إسحاق ، وبجواب مالك عنها^(٤) : « كنت عند مالك بن أنس ، فقال له رجل : إن محمد بن إسحاق يقول : اعرضوا على علم مالك بن أنس فإنى أنا بيّطاره . فقال مالك : انظروا إلى دجال من الدجاجلة يقول : اعرضوا على علم مالك ! ويقول الراوى — الذى لفت نظره فى جواب مالك الناحية اللغوية قبل كل شيء — : « وما رأيت أحدا جمع الدجّال قبله » .

(١) ولدت عام ٤٨ هـ كما يقول ابن حجر : التهذيب ١٢ : ٤٤٤ .

(٢) ابن قتيبة : المعارف ٣٠١ .

(٣) ابن حجر : التهذيب ٩ : ٤٢ ؛ فيك ٢٠ ، الملاحظة ٤٠ .

(٤) ياقوت : ت. مرجليوث ٦ : ٤٠٠ .

ويبدو أن ابن إسحاق لم يكن له أى نوع من الصّلات ببلاط دمشق بخلاف أستاذه الزهري . وربما كان سقوط تلك الأسرة عام ١٣٢ هـ ، وارتقاء العباسيين عرش الخلافة سببا إضافيا لمغادرته بلده . وعلى كل حال نسمع^(١) أنه رحل من المدينة إلى الكوفة ، والجزيرة ، والرى ، وبغداد ، حيث يقال إنه ظل فيها حتى وفاته . وتعطينا رواية أخرى تفاصيل أدق عن إقامته في تلك المناطق^(٢) :

« وكان محمد بن إسحاق مع العباس بن محمد بالجزيرة (حيث كان العباس واليا في عام ١٤٢ هـ) ؛ وكان قصد أبا جعفر المنصور (الذى تولى الخلافة من عام ١٣٦ إلى ١٥٨ ، ولكنه تحول إلى بغداد في عام ١٤٦ للمرة الأولى) بالخير فكتب إليه المغازى . فسمع منه أهل الكوفة لذلك السبب ، وسمع منه أهل الجزيرة حين كان مع العباس ابن محمد . وأتى الرى (حيث كان يعيش ولى العهد المهدي من قبل عام ١٥١ هـ) . فسمع منه أهلها ، فرواه من هذه البلدان أكثر ممن روى عنه من أهل المدينة . وأتى بغداد فأقام بها إلى أن مات بها . ومات ابن إسحاق في بغداد عام ١٥٠ أو ١٥١ هـ^(٣) ، ودفن في مقبرة الخيزران^(٤) .

ولا تعنى هذه الرواية أنه كتب المغازى للخليفة بعهد منه . إذ تبين قائمة الرواة الذين ذكروهم أنه ألف مادته على أساس الأحاديث التى جمعها في المدينة خاصة ، وعلى أساس الأحاديث التى جمعها في مصر أيضا ؛ ومن جهة أخرى لا يذكر أسماء رواة من العراق في أى مكان . ومن الواضح

(١) ابن سعد ٧ : ٦٧ .

(٢) ياقوت ، ت . مرجليوت ٦ : ٣٩٩ ؛ انظر ابن قتيبة : المعارف ٢٤٧ .

(٣) ابن سعد ٧ : ٦٧ ومقالات التراجم الباقية .

(٤) ياقوت ، ت . مرجليوت ٦ : ٣٩٩ .

أن الكتاب تم حين غادر ابن إسحاق أخيرا مدينة آبائه ، ونعرف أيضا مدنيا رَوَى كتاب ابن إسحاق: وهو إبراهيم بن سعد (المتوفى عام ١٨٤هـ) ومع ذلك قد يُظن أن ابن إسحاق أجرى بعض التغييرات الإضافية في كتابه، لإرضاء الخليفة ، أو أنه اختصر الفقرات التي خاف ألا ترضيه . ومع ذلك نستطيع أن نؤكد من جهة أخرى ، أن ابن إسحاق عالج في كتابه حادثا لا يمكن أن يُرضى الخليفة تذكره : ذلك هو الدور الذي قام به جده العباس في وقعة بدر إلى جانب خصوم النبي المبكين . ويؤكد ابن إسحاق^(١) ذلك الدور بوضوح ، ويذكر العباس بين أسرى بدر . ومن الحق أن الدور الذي قام به العباس لطَّفه أنه حارب النبي بغير رضاه ، كما تقول رواية قبلها ابن إسحاق وتُرفع إلى ابن عباس^(٢) ، وأنه هو وزوجه ناصرا للإسلام منذ فترة طويلة ، وإن لم يعتنقاه جهرة إلى اليوم ، كما تقول رواية أخرى ترجع إلى مولى للعباس^(٣) . وليس من المحتمل أن ابن إسحاق أدخل هذه الأقوال اللطيفة للمرة الأولى بتأثير العباسيين ، لأن تلميذه المدني المذكور سابقا إبراهيم بن سعد ، روى القول بأن العباس اعترف بنبوة ابن أخيه بعد أسره^(٤) . وحتى إذا كانت أقوال ابن إسحاق هذه أدخلت للمرة الأولى في زمن مغادرته لبلدته ، فإنه لم يذهب بعيدا إلى حد المرافقة على اختصار الدور الذي قام به العباس في بدر ، كما فعل ابن هشام والواقدي فيما بعد .

(١) الطبري ١ : ١٣٤١ ؛ ابن سعد ٤ : ٧ ، الطبري ١ : ١٣٤٤ .

(٢) ابن هشام ٢ : ٢٨١ ؛ الطبري ١ : ١٣٢٣ ، ابن سعد ٤ : ٥ .

(٣) ابن هشام ٢ : ٣٠١ ؛ الطبري ١ : ١٣٣٩ .

(٤) ابن سعد ٤ : ٧ .

ويسمى كتاب ابن إسحاق «كتاب المغازي»^(١) وكان ينقسم في الأصل إلى أجزاء ثلاثة : المبتدأ ، والمبعث ، والمغازي^(٢) ، أى أنه عالج تاريخ الرسالات قبل الإسلام ، وشباب النبي ونشاطه في مكة ، وأخيرا الفترة المدنية . ولم يُحفظ لنا الكتاب كاملا في صورته الأصلية . وتوجد مخطوطة في القسطنطينية في مكتبة كبريلي ، قد يظن من الفهرست المطبوع أنها تحتوى على الكتاب بصورته الأصلية ، ويتجلى لى عند المعاينة أنها نسخة من ابن هشام . ومع ذلك يمكننا هذا الموجز ، الذى صار فى متناول الجميع في طبعة وستفلد (جوتنجن ١٨٥٩) وفي طبعة بُلّاق أيضا^(٣) ، يمكننا من تكوين صورة واضحة عن منهج الكتاب في صورته الأصلية ، بعد ربطها بالقطع الكثيرة المذكورة في الطبرى وغيره من المؤرخين . ويقرر ابن هشام (المتوفى عام ٢١٨ هـ) الذى روى كتاب ابن إسحاق عن تلميذه المباشر البكائى (المتوفى عام ١٨٣ هـ) في مقدمته^(٤) ما أحدثه من التغييرات في كتاب ابن إسحاق . فترك تاريخ أهل الكتاب من آدم إلى إبراهيم ، ولم يذكر من سلالة إسماعيل غير أجداد النبي المباشرين . وكذلك ترك بعض الحكايات التى رواها ابن إسحاق وليس فيها ذكر النبي ، أو لا يشير إليها القرآن ، ولا تحتوى على مناسبة أو شرح أو تأكيد أى أمر آخر مروي في كتاب ابن إسحاق . وقد أجرى كل هذا الحذف ليختصر

(١) ابن سعد ٦ : ٢٧٦ ، ٧ : ٨١ ؛ ابن قتيبة : المعارف ٢٤٧ ، فقرات أخرى عند «فيك» ٣٤ الملاحظة ١ .

(٢) «فيك» ٣٤ ، الملاحظات ٥-٦ يذكر الفقرات التى توجد فيها هذه الإشارات .

(٣) لم تكن قد ظهرت في زمن المؤلف طبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده

بالقاهرة سنة ١٩٣٦ - ح . (٤) ١ : ٤ .

الكتاب . ولكن هناك محذوفات أخرى لأسباب أخرى : فقد حذف القصائد التي كان لا يعرفها علماء الشعر الذين سألهم عنها ؛ والحقائق التي يؤدي ذكرها بعض الناس ، أو يحتمل أن يسيء إليهم ؛ ثم الأخبار المنسوبة خطأ لابن إسحاق ولكن البكائي كان يجهلها . وأجرى ابن هشام أيضا تصحيحات حقة ، وإضافات كثيرة في الأنساب واللغة ، يشير إليها دائما أنها من عنده ؛ ولكنه لم يغير في النص ؛ ولا يحتوي ملخصه إلا على إشارات ، في كل مرة ، إلى المواضع التي حذف منها أشياء . ومع ذلك ، فنحن في موقف نستطيع فيه ، بمساعدة الفقرات التي في الكتب الأخرى من كتاب ابن إسحاق ، أن نسترجع قدرا كبيرا مما حذفه ابن هشام ، فتملاُ النقص في نسخته . وقد وعى الطبري خاصة جزءا كبيرا من الفصل الخاص بأنبياء أهل الكتاب ، فهو يعطينا في تاريخه وفي تفسيره مقتطفات كثيرة كبيرة من تلك الفصول من كتاب ابن إسحاق المنتمية للمبتدأ ، على حين حفظ لنا الأزرقى أخبارا كثيرة تتناول تاريخ مكة القديم ، المحذوف عند ابن هشام . ويُستنتج من مقدمة ابن هشام أن محذوفاته من المغازي كانت طفيفة ، بعكس هذه المحذوفات المهمة من المبتدأ ، ولكن الطبري يفوق الجميع هنا أيضا في تقديم ما يمكننا من ملء الثغرات ، فهو مثلا حفظ الخبر الخاص بأسر العباس في بدر^(١) ، ذلك الخبر الذي تركه ابن هشام خوفا من إساءته إلى « بعض الناس » ، أي الأسرة الحاكمة ، كما لاحظنا من قبل .

(١) الطبري ١ : ١٣٤١ . انظر « فيك » ٣٦ ، الملاحظات ٢٢ — ٣٢ لمرة
المقتطفات من أصل ابن إسحاق عند الكتاب الآخرين .

وإذا غطينا بهذه الفقرات المحفوظة في مقتطفات ليست في نص ابن هشام ، وصلنا إلى الصورة التالية لمنهج كتاب ابن إسحاق .

(١) التاريخ الجاهلي (المبتدأ) الذي ينقسم إلى أربعة فصول ، يتناول أولها الوحي قبل الإسلام منذ خلق العالم حتى عيسى . وقد لقي هذا الفصل الحظ الأوفر من إعراض ابن هشام . ولما كان ابن إسحاق معنيا في كل مكان بالتاريخ السنوي ، أعد لهذا الفصل أيضا مثل هذه الإحصاءات ، وعنى بروايات وهب بن منبه ، وروايات ابن عباس ، وأخبار الأدباء اليهود والمسيحيين ، ونص الكتاب المقدس نفسه ؛ إلى جانب رجوعه إلى القرآن . ويظهر فيه إلى جانب رجال الكتاب المقدس القبائل العربية من عاد وثمود ؛ الذين أرسل الله إليهم رسله ؛ كما يقول القرآن ؛ ولكنه يذكر أيضا طئما وجديسا ، وهما غير مذكورين في القرآن .

ويتناول الجزء الثاني من « المبتدأ » الذي حُفظت مادته في كتاب ابن هشام^(١) ، والذي يمكن تكميله من الطبري أيضا^(٢) ، تاريخ اليمين في العصور الجاهلية . وقد أدت دراسة القرآن إلى الاشتغال بتاريخ اليمين من قبل ؛ فقد أعطتهم السورة ٨٥ التي تتناول « أصحاب الأخدود » الفرصة للبحث في انتشار اليهودية والمسيحية في جنوب بلاد العرب ، لأن التفاسير الماثورة ترى في هذه الآيات إشارة إلى سقوط ذى نواس الملك اليهودي ؛

(١) تحقيق الأستاذ مصطفى السقا مع آخرين ، ومى النسخة التي رجعت إليها

من السيرة — ح . (٢) ٩٠١ : ١ — ٩٥٨ .

على حين رغبوا في دراسة « أصحاب الفيل » (السورة ١٠٥) لمعرفة جيش
أثره والى اليمن الحبشى ، الذى منعه أمر الله من متابعة الهجوم على
مكة وحرما .

ويتناول الفصل الثالث من « المبتدأ » القبائل العربية وعبادتها
الأصنام^(١) ؛ والرابع أجداد النبی المباشرين والديانات المكية^(٢)

وجملة القول أن الأسانيد نادرة في « المبتدأ » ، وهى فى أغلب الأحيان
فى الفصل الأول

(ب) المبعث ويشمل حياة النبی فى مكة ، والهجرة ، وربما شمل العام
الأول من نشاطه فى المدينة أيضا . ويزداد فى هذا الجزء عدد الأسانيد ،
ويعتمد ابن إسحاق خاصة على روايات أساتذته المدنيين ، التى يبرزها
فى نظام سنوى ، وهو يقدم للأخبار الفردية بموجز حاو لمحتوياتها فى الغالب .
وفى هذا الجزء ، إلى جانب القصص التى يجلبها بإسناد أو بغيره ، وثيقة
دونها ابن إسحاق وحده ، ولم يدونها أحد من جامعى المغازى الأولين ،
تلك الوثيقة هى معاهدة النبی المشهورة مع القبائل المدنية ، المسماة « نظام
مجتمع المدينة^(٣) » ، وكذلك مجموعات كاملة من القوائم^(٤) : قائمة بالمؤمنين
الأولين ، وقائمة بالمسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة ، وقائمة بأول من أسلم

(١) ابن هشام ١ : ٧٨ — ٩٣ . (٢) نفس المرجع ٩٣ — ١٦٦ .

(٣) نفس المرجع ٢ : ١٤٧ . لا يذكرها ثانية إلا ابن سيد الناس ، متابعا ابن
إسحاق ، فى كتابه « عيون الآثار » انظر فسنك : محمد واليهود فى المدينة
(ليدن ١٩٠٨) ٨٢ .

(٤) ابن هشام ١ : ٣٤٤ ، ٢ : ٣ ، ٧٣ ، ٨٦ ، ٩٧ ، ١٢٠ ، ١٥٠ .

من الأنصار؛ وقائمة بالمشاركين في بيعتي العقبة؛ وقائمة بالمهاجرين والأنصار الذين تلقّوهم في المدينة، وقائمة بالمهاجرين والأنصار الذين آخى بينهم النبي.

(ح) المغازي: وهو تاريخ النبي في المدينة منذ أول صيحة للحرب مع القبائل المشتركة إلى أن توفي النبي. وتنتشر الغزوات الفعلية في جميع أنحاء الجزء، فلا يعالج بتفصيل غير مرض النبي الأخير ووفاته. والقاعدة هنا وجود الإسناد، ورواة ابن إسحاق أساتيد المدنيون، وأهمهم الزهري، وعاصم بن عمر، وعبد الله بن أبي بكر، الذي يدين له بالنظام السنوي. ومع ذلك زاد ابن إسحاق المادة المجموعة منهم ومن غيرهم زيادة ملحوظة، بالأخبار التي أضافها من الرواة الآخرين، وخاصة الأقوال التي أخذها عن أقارب الرجال والنساء الذين اشتركوا في الحوادث^(١). ويستخدم ابن إسحاق منها محددًا لعرض الغزوات الفعلية؛ يقدم ملخصًا حاويًا للمحتويات في المقدمة، ويتبعه خبرًا جماعيًا مؤلفًا من أقوال أوثق أساتيد، ثم يكمل هذا الخبر الرئيس بالأخبار الفردية التي جمعها من المراجع الأخرى. والقوائم كثيرة في المغازي أيضًا^(٢)؛ فهو يدون قائمة بأوثق الذين حاربوا في بدر؛ وأخرى بالقتلى والأسرى؛ وثالثة بقتلى أحد، وكذلك قتلى

(١) «فيك» ٤٢، الملاحظات ٧٤ — ٨٢، تغطي أقوالًا كاملة عن الإسناد في هذا الجزء.

(٢) ابن هشام ٢: ٣٣٣ — ٣: ٨، ١٢٩ — ١٣٥، ٢٦٤، ٣٥٧، ١: ٤ — ١٢، ٣٠، ١٠١.

الخندق ، وخير ، وموثة ، والطائف ، والمهاجرين الذين رجعوا من الحبشة .

وجمع « فيك » قائمة بخمسة عشر تلميذا لابن إسحاق^(١) ، ونستطيع منها أن نبرهن على أنهم رَوَوْا كتاب أستاذهم « كتاب المغازي » ، وكان أحدهم وهو إبراهيم بن سعد المذكور سابقا ، تلميذه في المدينة ، وأما الآخرون فعرفوا كتابه عن حياة النبي في الكوفة ، والري ، وبغداد . وأشهر النسخ المروية عن تلاميذه عندنا نسخة البكائي ، التي اعتمد عليها ابن هشام ؛ ومن جهة أخرى ترجع معظم الفقرات عند الطبري إلى سلمة ابن الفضل (المتوفى عام ١٩١ هـ) . وأستنتج من رسالة جد لطيفة أرسلها لي المستر كرنكو F. Krenkow أن « مستدرک » الحاكم النيسابوري ، الذي يُطبع الآن في حيدر أباد ، يحوى في الفصل الخاص بالمغازي عدة مقتطفات من كتاب ابن إسحاق ، استعار معظمها من نسخة يونس بن بكير (المتوفى عام ١٩٩ هـ) . ومثله في ذلك ابن الأثير في كتابه « أسد الغابة » ، وابن حجر في الإصابة . ويبدو أن آخر مقتطفات محفوظة من ابن إسحاق هي تلك التي عند ابن حجر^(٢) ؛ ولكن سعة انتشار ملخص ابن هشام قللت الحاجة إلى الكتاب الأصلي منذ عهد بعيد . فاليعقوبي (المتوفى حوالى عام ٣٠٠ هـ) يستخدم ملخص ابن هشام هذا^(٣)

(١) محمد بن إسحاق ٤٤ .

(٢) « فيك » : نفس المرجع ٣٤ ، الملاحظة ٨ .

(٣) نفس المرجع ٣٢ .

وأكبر أساتيد ابن إسحاق هو الزهرى ؛ وغالبا ما يُعبر عن العلاقة التي كانت بينهما في صورة الإسناد ؛ فيقول مثلا : « حدثني محمد بن مسلم الزهرى » ، أو « سألت ابن شهاب الزهرى » أو يقول : « حدثني الزهرى ... قد جمعت لك الذى حدثني القوم ^(١) » .

وبعث ابن إسحاق أيضا إلى الزهرى وثيقة رواها له يزيد بن أبي حبيب في مصر عن سفارات النبي إلى الأمراء المختلفين ، كي يتحقق من صحتها ^(٢) .

ويجرب ذكر الزبيرين كثيرا بين شيوخ ابن إسحاق ، إلى جانب الزهرى ، وعاصم ، وعبد الله بن أبي بكر . ولا يدين ابن إسحاق بكثير من الأخبار ليزيد بن رومان ^(٣) ، مولى عمرو بن الزبير وحده ، بل لموالى بنى الزبير الآخرين أيضا ^(٤) ، ولأقارب تلك الأسرة كذلك ، مثل هشام ويحيى ابني عمرو ^(٥) ؛ وعمر بن عبد الله ابن أخى عمرو ^(٦) ، ومحمد بن

(١) ابن هشام ١ : ٣٥٧ ، ٢ : ١٣٣ ، ٢١٣ ، ٣ : ٣٠٩ ، ٣٧١ ، فيك ١٠ ، الملاحظة ٣٨ .

(٢) ابن هشام ٤ : ٢٥٥ ؛ الطبرى ١ : ١٥٦٠ .

(٣) الذهبي ، ت . فيشر (تراجم الصحابة) ٨٤ ؛ ابن حجر : التهذيب ١١ : ٣٢٥ .

(٤) وهب بن كيسان ، ابن هشام ١ : ٣٦٤ ؛ وإسماعيل بن أبي حكيم ، نفس المرجع ١ : ٢٥٤ .

(٥) ابن هشام ١ : ٣٠٩ ، ٣٣٦ ، ٣٤٠ ، ٢ : ٥٨ .

(٦) نفس المرجع ٢ : ٥٧ ، ٢٣٨ .

جعفر ابن أخى عروة^(١) ثم ليحيى بن عباد بن عبد الله ابن أخى عروة الكبير^(٢) .

ورجع ابن إسحاق ، إلى جانب من رجع إليهم من علماء الإسلام بالحديث والتفسير - وكان أستاذه المقدم فى هذا الميدان محمد بن أبى محمد من الموالى^(٣) - والمغازى إلى العلماء غير المسلمين حين كان يريد أخبارا عن الحوادث اليهودية ، والمسيحية ، والفارسية . فيذكر بين روايته « بعض أهل العلم من أهل الكتاب الأول » ، أو « أهل التوراة » ، أو « من يسوق الأحاديث عن المعجم »^(٤) . ويبدو أنه الوحيد بين علماء المدينة الذى قبل مثل هذه الأقوال ، وقد عيب عليه ذلك فيما بعد ؛ على حين أخذ وهب ابن منبه ، فى جنوب بلاد العرب ، قبل ابن إسحاق ، مثل هذه الأخبار غير الإسلامية دون أىّ تخرج ؛ أضف إلى ذلك أن ابن إسحاق يذكر وهبا عدة مرات بين روايته فى قصص أهل الكتاب ، وكان المغيرة بن أبى زييد^(٥) الراوى الذى وصلته عنه أقوال وهب . ويبدو أن ابن إسحاق ، فيما عدا وهبا ، أول مؤلف عربى يعطينا فقرات من العهدين : القديم

(١) نفس المرجع ٢ : ١٣٧ ، ١٥٦ ، ٢٢٣ ، ٣١٦ ، ٣ : ٤٧ ، ١٠١ ، ٣٠٧ ، ٢٥٢ .

(٢) نفس المرجع ٢ : ١٣٣ ، ٢٨٣ ، ٣٠٢ ، ٣٠٧ ، ٣٢٦ ، ٣ : ٨٢ ، ٩١ ، ١٨٢ .

(٣) « فيك » ٢٩ ، الملاحظة ٢٢ .

(٤) الطبرى ١ : ١٤٠ ، ١٢١ ، ١٨٩ ، ٢١٢ ، ٤١٣ ، ٧٣٧ ؛ ابن

هشام ١ : ٣٢٨ ؛ انظر أيضا جولد تسيهر : اتجاهات التفسير عند المسلمين ٩٠ .

(٥) « فيك » ٢٩ .

والجديد مترجمة ترجمة حرفية ، فيقدم الفقرات ٥٠ : ٢٢ بقوله :
 « وفي التوراة^(١) » ، والفقرة ٤ : ٩ - ١٦ من سفر التكوين بقوله :
 « ويزعم أهل التوراة^(٢) » ، والفقرة ١٥ : ٢٣ من يوحنا بالتصريح بأنها
 « مما أثبت يُحَنَس الحواري^(٣) » . وإذا جاء ابن إسحاق في نفس الوقت
 بالْمَنْحَمَنَا almanahhamana بدلا من البرْقْلَيْطُس الإغريقية ، فإن ذلك
 يدل على أن الفقرات التي اطلع عليها مطابقة للترجمة المسماة بالفلستينية
 المسيحية^(٤) .

وتكشف بعض قوائم النسب عن اتفاق شديد مع نص الكتاب
 المقدس ؛ فتوافق قائمة أبناء إسماعيل سفر التكوين ٢٥ : ١٣ - ١٦^(٥)
 كلمة بكلمة .

ويأخذ ابن إسحاق القوائم والرسائل والوثائق الأخرى التي يوردها
 بغير إسناد في غالب الأحيان ، عن مدونات كان قد حصل عليها^(٦) . وكان
 : أستاذه عبد الله بن أبي بكر ، الذي كان عند أسرته نسخة من رسالة النبي
 لجده الأكبر ، كما قد رأينا ، قد جمع مجموعة من تلك الوثائق ، ولا يروى

(١) الطبري ١ : ٤١٣ .

(٢) نفس المرجع ١٤١ . (٣) ابن هشام ١ : ٢٤٨ .

(٤) نولدكه شولي Nöldeke Shwalley : تاريخ القرآن ١ : ٩ .

(٥) ابن هشام ١ : ٢ .

(٦) كذا يقول ابن إسحاق عن رسالة من النبي لإحدى القبائل : وكتب لهم
 كتابا وهو عندهم .

تلميذه ابن إسحاق هذه الوثائق إلا عنه^(١) . وكذلك يعطينا قطعة أخرى من الوثائق من رواية أستاذه المصرى يزيد بن أبى حبيب^(٢) .

وأدخل المتقدمون على ابن إسحاق فيما أدخلوه من الأخبار والوثائق النثرية في مجموعاتهم كثيرا من الأشعار ، ولكن أحدا منهم لم يدخلها بالتقدير الكبير الذى أدخله ابن إسحاق فيما نظن .

روى مؤلف الفهرست^(٣) : « ويقال : كان يُعْمَلُ له الأشعار ، ويُؤْتَى بها ، ويُسأل أن يدخلها في كتابه في السيرة ، فيفعل . فضمن كتابه من الأشعار ما صار به فضيحة عند رواة الشعر » . وربما بنفس هذا العيب من قبل محمد بن سلام الجُمَحِي^(٤) . (المتوفى عام ٢٣١ هـ) . ويزيد عليه أن ابن إسحاق دافع عن نفسه بأنه ليس عالما بالشعر ، وأنه يرضى بما يُحْمَلُ إليه من القصائد . ولكن ليس هذا بالاعتذار عن وضع القصائد على أفواه الرجال الذين لم ينظموا شعرا عامة ، بل على أفواه النساء أكثر من الرجال ، بل يبعد كثيرا إلى درجة ذكر قصائد من عاد وثمود دون أن يسأل نفسه من حفظها في أثناء آلاف الأعوام التى انقضت منذ فناء هذه

(١) ابن هشام ٤ : ٢٣٥ ؛ الطبرى ١ : ١٧١٧ ؛ ابن هشام ٤ : ٢٣٧
الطبرى ١ : ١٧٢٤ ؛ ابن هشام ٤ : ٢٣٩ ؛ الطبرى ١ : ١٧٢٧ ؛ ابن هشام ٢ :
٢٤١ ؛ الطبرى ١ : ١٧٤٨ .

(٢) ابن هشام ٤ : ٢٤٥ ؛ الطبرى ١ : ١٧٤٠ .

(٣) ت : فلوجل ٩٢ ؛ ياقوت ، ت . مرجليوث ٢ : ٤٠٠ .

(٤) طبقات الشعراء ، ت . هل ٤ .

القبائل . حقا أن الطبري حفظ^(١) بعض القصائد من عهد عاد وثمود كان ذكرها ابن إسحاق في كتابه ؛ ويصرح ابن هشام أيضا عن جمهور كبير من القصائد التي ذكرها ابن إسحاق في كتابه ، بأنها غير معروفة عند أهل العلم بالشعر ، ولا يذكر ابن إسحاق إلا في النادر أسماء الذين أمدوه بهذه القصائد . وقد أخذ بعض القصائد الخاصة بحدوث الفترة المدنية من أستاذة عبد الله ابن أبي بكر^(٢) ، كما يخبرنا ؛ والخاصة بإحدى مرثى بنت عبد المطلب عند وفاة أبيها ، تلك المراثية التي يذكرها ابن إسحاق كاملة ، ويعلق عليها ابن هشام بقوله^(٣) : « ولم أرَ أحدا من أهل العلم بالشعر يعرف هذا الشعر ، إلا أنه لما رواه عن محمد بن سعيد بن المسيب كتبناه » . وإن نخطئ كثيرا إذا استنتجنا أن ابن فقيه المدينة المشهور هذا ليس راوى هذه القصيدة فحسب ، بل مؤلفها أيضا ؛ إن لم يكن ألقاها أبوه ، الذي نراه شديد الصلة بفن الشعر خاصة^(٤) .

والآن كيف نحكم على إدخال مثل هذه القصائد ؟ وهل يستحق ابن إسحاق نقد الجمحي ؟

لا يوجد ما يدعو إلى الشك في صحة كثير من القصائد التي ذكرها

(١) ١ : ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ .

(٢) ابن هشام ٤ : ١٣ ، ١٨ ، ٤٩ .

(٣) ابن هشام ١ : ١٧٩ . يستنتج من ابن هشام ١ : ١٨٣ أن المرثى الباقية أيضا ترجع إلى محمد بن سعيد .

(٤) لا نستطيع أن نساير المؤلف في هذا الرأي ، فهو ظاهر المغالاة فيه ؛ فليست الرواية وحدها كافية لاتهام محمد بن سعيد بن المسيب بالوضع ، كما أن الميل الشعري وحده ليس بكاف لاتهام سعيد نفسه على جلالة قدره ، وعظيم مكانته بالوضع ، وإذا كانت الشبهة تحوم حول الابن فإنها بعيدة كل البعد عن الأب - ح .

ابن إسحاق ، وخاصة التي تتصل بجوانث المدينة ، وكثير منها كان معروفا بصحته في عهد ابن هشام لدى علماء الشعر . ولم يكن ابن إسحاق يتمسك بصحة كثير من الباقي على الإطلاق ، ولكنه لم يقم بأبحاث خاصة في صحتها لم يعتقد العلماء المحترفون القيام بها ، ولا تمسه مسألة صحتها مسألاً خاصاً . فهو استشهد بهذه الأشعار ، على قدر ظهورها له جديرة بالاستشهاد ؛ لأنها تنفع في تزيين القصة ، ولأن إدخال القصائد في الأخبار النثرية كان من الأمور المتبعة في الفن المأثور القديم عن القصاص العرب ؛ وقد أشرت في مقال عن « اقتباسات السيرة الشعرية ^(١) » إلى أننا نجد مثل هذه الاقتباسات في أخبار أيام العرب وفي أخبار الغزوات الإسلامية ، وأنه تكثر في هذه الأخبار النقائض - أعني المعارضات الشعرية التي ينشد فيها ممثلو الفريقين المتخاصمين أحدهما بعد الآخر ، ويجابوب فيها الشاعرُ الثاني الأولَ بنفس الوزن ونفس القافية - تكثر هذه النقائض في الأيام كما تكثر عند ابن إسحاق . بل نجد الشعراء في أخبار النقائض بين الأوس والخزرج في العصر الجاهلي يمثلون أبطال القبائل المتخاصمة كما هو الحال في المغازي فيما بعد (حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة) ويكشف ابن إسحاق عن نزاهة غير عادية في إدخال القصائد ؛ حتى يسمح لخصوم النبي بإدخال الأشعار التي نظموها دون تخرج ، وفي بعض الأحوال يرى ابن هشام أن من الضروري التلطيف من حدة بعض عبارات هؤلاء

(١) مجلة الإسلام Islamica ، العدد الثاني ، ص ٣٠٨ وما بعدها .

الشعراء . ويجدر بنا أن نؤكد أن هذه القصائد ليست لها طبيعة قصصية على الإطلاق ، وإن كانت تحتوى فى الغالب على إشارات للحوادث المروية فى الأخبار النثرية ، ولا ينطبق هذا بدون تكلف على القصائد التى ذكرها ابن إسحاق وحده ، بل على القصائد الموجودة عند المؤرخين والقصاص الآخرين فى الزمن المتقدم . وإنما لها طبيعة غنائية أكثر منها قصصية ، ولا تُنسب للقصص نفسه أبداً ، بل توضع على فم أحد الممثلين فى الحوادث ، على فم البطل نفسه أو فرد من قبيلته معبراً عن مشاعره تلقاء الحوادث ، وعلى أفواه النساء أيضاً ، اللاتى ينعين الميت أكثر من أى عمل آخر ؛ وربما كان ابن إسحاق ، فى بعض الحوادث التى توافر له فيها قدر من الأقوال الشعرية ، أول من وضع كل هذه الأشعار معا فى نهاية الفصل المعالج^(١) على حين يقطع هو ، فى المواضع الأخرى ، والقصاص الآخرون الخبر النثرى بالمقتبسات الشعرية .

وجمع ابن إسحاق المادة التى رواها له أساتيدته فى روايات ، وزادها بالأقوال الكثيرة التى جمعها بنفسه ، فى عرض حسن التنظيم لحياة النبي . وقد أدخل فى هذا العرض قوائم ، ووثائق ، وأشعاراً أخذ جزءاً منها من أساتيدته ، والجزء الآخر جمعه بنفسه . وجمع هذه المادة

(١) ابن هشام ٣ : ٨ — ٤٥ ، ١٣٥ — ١٧٧ ، ١٨٥ ، ٢٠٤ ،

٢٦٦ — ٢٨٣ . ح : قام بهذه المحاولة عبيد بن شربة من قبل فى أخباره .

وخذها وترتيبها جهد كبير ، وإن كان سبقه في ذلك أناس ، ولكنه ربما لا يكون أول من عرض جميع فترات حياة النبي باتساق في كتابه فحسب ، بل ومع أيضا تلك الترجمة يجعلها تاريخا للرسالة عامة ، أدخل فيه حياة الأنبياء المتقدمين أيضا .

وعند ما نتكلم عن ترتيب المادة نقول : إن ابن إسحاق بذل جهدا خاصا في ربط الروايات الفردية إحداها بالأخرى ، بعبارات موجزة تلخص محتوياتها^(١) ، وأنه كان يكوّن في كثير من الأحيان خبرا عاما موحدًا من عدة أخبار من رواته المختلفين ، يصدره بأسمائهم ، وخاصة في المغازي بالمعنى الخاص ، كما فعل أستاذه الزهري من قبل في أحوال كثيرة . ومهما اختلف الرأي في صحة قدر كبير من الأخبار التي جمعها ابن إسحاق ، وكان يعبر عن شكه في الغالب بملاحظات معترضة مثل « فيما يزعمون » ، والله أعلم » فإن كتابه كجهد أدبي يرتفع إلى مرتبة عالية ، وتزداد قيمته لدينا لأنه يمثل أقدم السكتب الثرية العربية التي وصلت إلينا جميعها .

ويُنسب في الفهرست^(٢) أيضا لابن إسحاق كتاب يسمى

(١) لأعني بهذا عناوين نسخة وستيفلد لابن هشام ، التي لم تؤخذ من ابن إسحاق ولا من ابن هشام ، بل قدمها نسخ متأخرون للنص . وإنما تتكون تقارير المحتويات التي أتكلم عنها من العبارات التي اعتاد أن يقدم بها ابن إسحاق الأخبار التي يذكرها .

(٢) ت . فلوجل ٩٢ ؛ ياقوت ، ت . مرجليوث ٦ : ٤٠١ .

« كتاب الخلفاء » . ويذكر الطبري ابن إسحاق كثيرا بين رواته في تاريخ الخلفاء الواشدين . ومن الواضح أنه تناول المغازي خاصة ، وأنشأ تاريخها الحولي ، ولكنه جمع كذلك أخبارا عن الثورة على عثمان ؛ وتنسب إليه روايات متناثرة تناول حوادث العصر الأموي . ولكن الفقرات الباقية غير كافية لتقدرنا على تصور منهج « كتاب الخلفاء » لابن إسحاق .

